أوراق من دفتر المراثي

. حميد سعيد* .

الورقة الأولى: ملا محمد علي

يَضْحك حيث كان،

ثم يبكي

حين تنتهي السهرة إذ ينصرف الأصحابْ.

يَضْحك في بكائه وفي الغناء،

ثم يبكي بعد أن يعودَ من غربته.. إليها..

ثملا..

ويُغْلق الأبوابْ.

هو المُحاطُ بالنَّخيل والنَّجيل والأنهار،

تَتْبعه فروضُ الليل في قيامةِ النهار.

الساحرُ الساخرُ والمهذَّبُ الحييّ

يّخشى الموت؛

حاول أن يَشْغلَه بألفةٍ ناعمة، ونكتة،

وسكرةٍ صاخبة، ورقصة،

وبالغناء؛

يحتاط له بضحكٍ ملتبس.

رأيتُه هناك، ذاتَ يوم، في مساربِ القبور

ينسلّ وحيداً.. مثلَ خلسة المختلس

بين المريدين الذين يسبقونه إلى المقاهي..

حيث عاش في ضجيجها..

كان وحيدا

يَصْخبون باسمه... ويَضْحكون

بين المحبّين الذين أولوا حنجرة المغني..

بادعاء الوله الطري..

كان في عزلته بعيداً.

ليس هذا الكفنُ الممتدُّ بين المهدِ واللحد

سوى قصيدةٍ منتحَلَهْ،

وليس عمرُ العاشقِ الصوفيِّ غيرَ لحظةٍ مؤجَّلهْ.

ما عرف السفر

أقام في أسئلةٍ مقفلة: «لم ولماذا؟!

مَنْ وماذا؟!»

نقلَ الخطى على الثّواني في طريقِ الوجد،

بين الخوف والحرمان.

يَضْحك حيث كان،

الليلُ مهرجانُه.. تقترب النجومُ مَن ضجيجِ خوفه..

بلا ضجيج.

هو الذي رأى قوافلَ الظلام في رحيلها السري

من ليلٍ إلى ليل؛

هو الذي غنّى؛

هو الذي استجار بالنارِ من الرمضاء؛

هو الذي..

أقام ظامئًا على ضفاف الماء.

الورقه الثانية: عباس جميل

ذاكرة بيضاء

وَجَدَ العُودُ البغدادي لياليه.. على صفحاتٍ منها

وأقام عليها مملكةَ الماء.

قال: أخطّ عليها اللحنَ الغائب..

أخْرجُ منها حين أكون.. خبايا الأوتار.

* - شاعرٌ من العراق

قال: أحاول أن أُغوي في الليل
جنّيات الماء،
وأخبِّئ أسراراً... خشيةَ أن يعرفها الماء.
قال: أكون، إذا فارقني النوم...
وضيّعتُ طريقي..
إنْ عدت مع الفجرِ إلى الدار.
قال: سأبحث عنها...
وسألقاها.
كانت تبحثُ عنّي، ومضيْنا
بين جموحِ الأوتار وحنجرةٍ من جمرٍ ونضار.
قال: جَمَعَني، وزهور حسين، الحزنُ الصاخبُ في الأوشار.

صبيٌّ في الخمسين
وفتًى في السبعين
يَلْعب بالليلِ كطفلٍ نزق.. يَدْخله أنّى شاء.
بيوت أحبته..
يفارقه حين يفارقها.
أقمارٌ تَخْفق، بين يديه، بيارقُها
ونجوم ماكرة
مدنٌ ونساء وصبابات وقصائد
للوقت يدٌ ناعمة.. ستعيد إليه صباه
وتعيد إليه امرأة ساحرة..
توقظ في الأوتارِ الرغبة.. وتعيد إلى خشبِ العود
سجايا البستان.
قال: قرأتُ على مَنْ علّمني..
في الصحف الأولى.. كان البلبلُ شيخًا وَرِعا
لا يَقْرب معصية.. يتوضأ بالنور..
يغنّي.

غنّى..
كان البلبلُ يَمْرح
في مرجٍ أسطوري بين أصابعه والوترِ المسحور.
غنّى للناس جميعا.. للأمراءِ وللفقراء،
غنّى لحبيبته بغداد.
زرياب أقام لها في ماضيها فردوسَ نشيدِ الأنشاد
وأقام لها البلبلُ عرسا،
وأقام لها عباس جميل
تقاليدَ السهرِ الليلي وأعيادَ الأعياد.
ما كان رأى في الأفق الممتدّ من القلب إلى بغداد
سُعارَ العاصفةِ السوداء،
ما كان رأى بيتَ المحبوبة، يَغْصبه الغرباء
حين أراد الماء،
رأى وجهَ الوطن الدامي في الماء..
فمات.

الورقة الثالثة: سليمان عويس

كان ذلك في ليل بابل.. حيث هو الليل
أنت وعكّازك الأنيق.. وعبد الرحيم.
السماءُ القريبة من بيت عشتار تَفْتح بابًا لنا،
وتَقْرب جيوش منّا
إذ قرأْنا على الجدر البابلية موّالَها
وسمعنا أهازيجَ دبين.
«وطفة» تَرْقص في ليلة العرس، تَضْرب خلخالَها.

كان ذلك في ليل بابل.. حيث هو الليل
أنت وعكّازك الأنيق.. وعبد الرحيم.
أَوَتَذْكر تلك القرى؟! رافقتنا إلى السهرة البابلية..
غنّى المغنّي العجوز..
ومدّ الفراتُ لنا يدَه. هل تذكّرتَ تلك الصبية،
وهي تقول لعبد الرحيم: «يا عم؟!»
قال: «العمى!»
وضحكنا.
أطربتْكَ المحبةُ في الناس.. أحببتَهم وأحبّوك.
غنَّيْتَ موَّالَك:
«لا تصطفي ذاك الصديق المِشْ وفي ..
تَلْقاه باليومِ العصيب.. بيختفي.»

وأشْهد أنكَ كنتَ الوفي..
ولم تنْأَ في الساعةِ العصيبة.

أنت رأيتَ الذي سيكون
وفرّقْتَ بين اليمامةِ والبوم،
بين القرنفلِ والفقع.
لما تخلّيتَ عن سحر دبين..
دحنونها وعصافيرها والصبايا
ونعناعها ومواويلها والحكايا
وما أنشأتْكَ عليه دواوينُها،
رأيتَ الذي سيكون..
غنّيْت:
«بغداد يا دار الفدا.. لا تندهي..
ما في حدا!»
رأيت الذي كان..
لم تبقَ زنبقةٌ تتباهى المواويل حين تمرّ بها.

مات عبد الرحيم
والتقينا بعمّان... كنّا وحيديْن.
ضيقةً كانت الطريقُ إلى بَيتِ «وضحة»
ضيقةً كانت القصيدة.. حتى المواويل ضاقت بنا.
أنا مَنْ ضَيّعَ وردةَ الكتابة..
وأنتَ الذي ضيَّع الطريقَ إلى موعد القرنفلِ الحلبي.
كنّا وحيدين..
كلُّ الذي كان.. فارَقَنا ومضى.

ثم فارقتْني ومضيْت
أنا الآنَ وحدي..
أَلمُّ شظاياك.. أَسْمعُ صوتَك:
«لا تصطفي ذاك الصديق المِش وَفي..
تَلْقاه باليومِ العصيب.. بيختفي.»

عمّان